صورة من الريف

للاستاذ كامل السيد شاهين

الشيخ محمود المليمي من فقهاء قريتنا، يحفظ القرآن الكريم لا تشتبه عليه آية ، ولا يؤخذ عليه لحن . ويروى فقه أبي حنيفة، لا يغيب عنه حكم ، ولا تلتوي عليه فتوى . لم يختلف بعد الكتاب إلى معهد من معاهد العلم ، فكان أستاذ نفسه في النحو، تنخل كتبه ونقضها نقضا. أستاذ نفسه في الأدب ، وأستاذ نفسه في الكلام والجدل والتفسير والحديث ؛ لكنه كان مع ذلك — مستصغرا محتقرا ، أسلمه إلى هذا الهوان جنايات نمالات عليه ، من الفقر وإرهاف الحس والحدة الرعناء .

كنت استفتيه إلى ظل السابعة ، وكان هو مشرفا على الثلاثين . وكانت معرفتي له آنذاك معرفة الحدثان بالشذاذ ، فهم مغرمون بمتابعتهم والتصفيق وراءهم والتندر بهم . كنت لا أراه أنا وأترابي حتى نشتد وراءه عدوا ، فاذا انقلب إلينا راجعا ، تهاربنا تهارب الفيران ، ولاذ كل منا بزقاق أو دار أو مسجد .

وكان الشيخ محمود أعمى أو شبه أعمى ، لا يفتأ يحدث نفسه وكثيرا ما تظهر انفعالاته في رفع يديه إلى صدره تفرك إحداهما الأخرى زهوا وإعجابا ، أو غيظا وتحرقا.

فتن الشيخ محمود بسعد زغلول ، وكان سعد عنده أرفع من أن يمدح بالشعر المنظوم أو الخطب المرسلة ، ولم يكن يليق به إلا سورة على نهج القرآن ، تسير بها الركبان ، ويتلوها الناس على مر الزمان .

وأصبح أهل القرية ذات يوم ، فاذا الشيخ محمود عند باب المسجد جالسا متربعا وقد تنحنح ثم سعل ، ثم بصق عن يمين وشمال ، ثم رفع عقيرته يتلو ويرنم هذه السورة الجديدة . ع . د ، إنك لمن المنصورين ، إنا شددنا عزمك المتين ، وآزرناك بمكرم المبين ، واصطفينا لك النحاس الأمين ، وباركنا عليك في الآخرين ، سلام على سعد في العالمين ، إنه من عبادنا المجاهدين . »

ولو رأيته وهو يتلو ويتمايل ، ويوفي المدحة والثنة حقها، ويمد النحاس مرة ، ويميله مرة ، ويحقق همزة الأمين تارة ، ويخفيها تارة ؛ ولو رأيته واضعا يده على صدغه ، مد خلا سبابته في أذنه ، وصدره يعلو ويهبط ، وعروق رقبته تبرز وتختفي ، لهالك هذا الجلال، ولأخذ بمجامع قلبك أخذا . فلما فرغ من سورته قال : « صدق محمود الحكيم » فتناوله الناس بما خف وما ثقل من عصا أو سوط أو حذاء أو حجر ، فمن لم يجد فصفعة بكف ، أو ركلة بقدم . فمن لم يستطع فبصقة من فم ، أو بخطة من أنف . وكان أمره هذا أحدوثة الموسم . ولكن الشيخ محمودا استوحش فلم يعد يأنس لاحد ولم يعد يأنس إليه أحد .

وشببت عن الطوق ، وشدوت شيئا في المعرفة ، واتصلت بالشيخ محمود ، إذ كان يختلف إلى أبي ليوضح له مشكلا ، أو يستعير منه كتابا ، أو يقرأ عليه مقالا ، فأكبرت الرجل وعرفت له حقه. وجاء يوما وقد دس صحيفة في كمه ، ثم نشرها وقال : اقرأ ، فاذا هو مديح للنحاس والوفد ، جاء فيه :

أستنصر الله للنحاس مأوانا نصر النبي الذي بالدين آوانا
وأسأل الله تأييداً لصحبته من أصبحوا تحت ظل الوفد اخوانا
لو خير الناس يوم الحشر مسكنهم لاخترت بيتك يا نحاس ديوانا

فلما بلغت هذا المكان من القصيدة قال : أكفف ! ، فكففت، ثم قال : أتظن النحاس باشا يعلم أن كلمة « ديوان » منقولة من الفارسية ، وأن أصلها « دوان » قلبت الواو الأولى ياء شذوذا؟ فأردت أن أسكر به ، فقلت : إنا لله ! إذا لم يعرف هذه فكيف يصح أن يكون رئيس الوفد ، وخليفة سعد ؟ ففرك يديه ، وجال بعينيه ، ثم قال : في الحق أنني أحترم النحاس باشا ، ولكني أحب عبد الحميد عبد الحق ، وفرق بين الاحترام والحب ، فعبد الحميد صفي روحي ، وإن كنت لم أره ولم يرني ، وقد عتبت عليه ببيتين فقلت :

عبد الحميد كفى ! فلست بعالم ماذا يثور اليوم في وجداني
والله ساهز الفؤاد وشفه إلاك — يا عفريت — من إنسان!

قلت : أو أرسلت بهما إليه ؟ قال : سأبلغهما له بنفسي وعلى طريقتي . سوف استحضره الليلة قبل نومي ، فاذا عن لي في الحلم ، أنشدته إياهما ، فيصبح وقد نقشا على قلبه نقشا .

وكان الشيخ قد مال إلى دراسة الانجليزية ، فلقيته على فترة من السنين ، فقلت له : ما أحدثت ؟ قال : أحدثت جللا ! ، قلت

ذلك هو العهد بك والأمل فيك . قال : نعم ، وجدت صغارنا يقبلون فى حفظ الانجليزية ، فرأيت أن أضمها أبياتى ، حتى تسهل وتهون . قلت : حسنا فعلت ، فلله أنت ! ، ثم اتخذنا سبيلنا إلى بائع « البقلاوة » وكان ابنه منكفئا على كتاب يستظهره وإلى جوار الدكان بائع « جزر » على حمار ، فالتفت الشيخ وقال : فما الامتحان « بقلاوة » كمثل التى عند « يور فذر » !

وما يدريه النابغ العبقرى وهو من كان — بالأمس — يسمع « الجزر » !

قلت : الله أكبر ! ، هذا هو النبوغ العبقرى لو كان يجد من يقدره ، فزفر وقال : آه يا كامل :

لو كان خالى الهـــلالى أو طاهـة بن حسين
ما « شخلعتنى » الليـــالى وشفت ظهـــر المجن !

وتضاحكنا ، وخبط الأرض برجله مرتين ، وأصغينا إلى المذياع ، فاذا عبد الوهاب يغنى :

أما رأيت حبيبى فى حسنه كالغزال
يطوف بالحب قلبى فراشة لا تبالى !

فطرب الشيخ محمود — وكان طروبا — وأخذ ينشد ويعطط ، ويتأوه ويهز عطفه راقصا ، ويعارض فى الأصوات كما يعارض بالأبيات ويقول :

بلى رأيت حبيبى فى « تخته » كالشوال
إن قلت « ولعت » قلبى يقول لى : « ونامالى » !

ومضت أعوام ثلاثة لم ألق فيها وجهه الكريم ، وعدت إلى البلد بعدها ، فلم يخف للقائى ، ولم يستبشر بوجودى ، ولم يعبأ بما كنت أخفض له من جانبى ، وكأنه زهد فيما كنت أفيضه عليه من ثناء وأتحفه به من إقبال ، وأكرمه به من تحية ، فسألت عنه حين لم يسأل عنى ، فجاء متثاقلا بطيئا ، وألقى تحيته فى تعاظم وتكأكأ ، وجلس فى اعتزاز واستعلاء ، وبدت فى عينه حمرة الشر ، فلما استوى به المجلس ، بدأت الكلام خائفا أترقب وصحت بالخادم : هات شراب ليمون مثمشما بالثلج ! ، فقال : ياهناه ما زلت تذهب إلى مصر وتعود ، وأنت فى ضلالك القديم ، لا ينفتق عقلك عن حديد ، وأنا هنا قابع فى عقر « كفر عليم » ومع ذلك أثب كل يوم وثبات فأحك بيافوخى السماء . قلت : لاجرم إذا انحرفت فقومنى ، قال بلى ، إذا طلبت ماء بليمون فلا تقل هات شراب الليمون ، وإلا كنت ساقطا تافها ركيكا كهذا الذى يقول :

أكلت « بطاطة » وشربت ماء كأنى ما شربت ولا أكلت

ثم يزعم أنه شاعر . ولكن قل هات الماء الليمن ، وليمن الماء يأتى ! ، وإذا خلط الماء بعصير البرتقال فهو مبرتق ، والغلام يبرتق الماء . أما سمعتهم يقولون « الرز المفلفل » والسمك المملح ؟ » فلماذا ندعهم يشتقون من الفلفل والملح ، ولا نشتق نحن من الليمون والبرتقال ؟ قلت : أفادك الله ، فما زلت راشدا مرشدا. قال : ليس هذا بشىء وإنما الشىء ما أسوقه إليك ، فقد هدانى النظر الفاحص إلى ضرب من الشعر يفهمه العربى الذى لا يعرف الانجليزية ، والانجليزى الذى لا يفهم العربية ، واستوى لى ذلك وأنا أنظر فى ديوان شعراء الجاهلية ، قلنا : وكيف كان ذلك ؟ ، قال : نظرت فوجدتنى أقرأ البيت فأجد فيه الكلمة والكلمتين لا أعرفهما ، ولم يسبق لى الوقوف عليهما ، ثم أعيد النظر وأخص الكلام ، وأتشمم لواه ، فأهتدى إلى معنى الكلمتين غير راجع إلى القواميس والمعاجم . فقلت فى نفسى لو جعلنا الكلمة العربية ، وإلى جوارها الانجليزية ، وأنشدنا عربيا وانجليزيا بيتا على هذا النسق لفهما جميعا ، اسمعوا إلى قول الشاعر :

لها جسم يرغوث وساقا بعوضة ووجه كوجه القرد بل هو أقبح

فلو أنى نظمته هكذا :

لها (بودى) يرغوث (لجز) بعوضة
(رفيس) كوجـــه (المنكى) بل هو أقبح

لفهم الانجليزى والعربى جميعا ، قال قائل : بل اضل الانجليزى والعربى جميعا ، واستغرقنا ضاحكين ، فتحسس السكاز وتلمس الباب ، وخبط الأرض بقدمه ، وانطلق فما نسمع إلا همهمته (حير ، جهال ، سفلة) . ونظرنا فلم نر أثرا .

وفى هذا العام سمعت إليه ، ولم يسع إلى ، فقد كان رهين جدثه وثواه الأخير ، ووقفت على قبره أنشد :

لا يبعد الله إخوانا لنا ذهبوا أفناهم حدثان الدهر والأبد
نعدهم كل يوم من بقيتنا ولا يؤوب إلينا منهم أحـد

كامل السيد شاهين
مبعوث الأزهر بالسودان